مع المستشرق الروسي كراتشكوفسكي

بقلم : خليل تقي الدين

لينينغراد ... نوار ١٩٤٧

بطرسبرج ! عاصمة القياصرة ، ولينينغراد الثورة الحمراء ، جئتها امس من موسكو بالقطار — وبينهما ليلة — وندمت !

لشد ما يحزّ في نفسي ان ارى « عزيز قوم ذلّ ! » او غنياً دار به دولاب الدهر فافتقر ! او امرأة عرفتها في ثورة الانوثة الصارخة ، والجمال الجارف فعصفت بها السنون فتراخت ، وترهلت ، وانطفأت الشعلة ، وامحى الجمال ! او مدينة ذات قباب ، وقصور ، وتماثيل ، ومفاتن عدت عليها عوادي الزمن فاحالت عاليها سافلًا ، وجثم البوم ينعق على اطلالها ..

بطرسبرج . لا بل لينينغراد . شادها بطرس الاكبر في مطلع القرن الثامن عشر على ضفاف الـ « نيفا » ليطل منها بالروسيا على مدنية اوروبا الغربية ويجعلها درّة في تاجه ، وجوهرة فريدة في تيجان القياصرة من بعده . عاصمة ملك ضخم وامبراطورية مترامية الاطراف نزلتها وبي شوق اليها فصدمتني الكآبة المخيمة عليها ، وراعني الفقر البادي على سكانها ، وهذا الاستسلام اليائس الذي رأيته في وجوه ابنائها ، وتلك الخرائب السوداء التي طالعتني طوال الطريق من المحطة الى الفندق .

عندما اراد بطرس الاكبر ان يبنيها حشد لها اكبر عدد عرفه البشر من عباقرة المصورين ، والنحاتين ، والنقاشين ، والبنائين ، والصناع . جاء بهم من روما وباريس وبرلين ومن كل بلد وصقع عرف ان فيه صاحب موهبة ، او ذا ذوق سليم ويدين حاذقتين . ثم اغرقهم بالمال فبنوا القصور وشادوا التماثيل ، وتركوا للاجيال المتعاقبة صوراً ارادها خالقوها على ان لا تبلى فكان « قصر الشتاء » ، وكان « الارميتاج » وكانت « كنيسة اسحق » آيات من الفن خالدات . هذه المدينة التي عجزت اقلام تولستوي ، ودوستويفسكي ، وتشخوف عن ان تفي بوصفها ، وقصّر الشاعر بوشكين عن ان يوفيها حقها من الغناء ، وقفت على اطلالها امس واليوم فاذا كل ما فيها يحدث عن مأساتها ، واذا جدران منازلها القائمة من غير نوافذ وابواب اشبه ماتكون بجماجم يبدو منها مكان العينين ، والانف ، والفم ، فتحات سوداء مخيفة تبعث القشعريرة في النفوس .

ماذا دهاها ؟

دهتها الثورة التي اندلعت منها في العام ١٩١٧ . وها هي امام عيني الساحات التي تكدست فيها الجثث في تلك الايام الحمراء : فلما تدحرج آخر رأس من رؤوس القياصرة التي جعلوها عاصمة بذخهم وترفهم ، غادرها لينين وخليفته ستالين الى موسكو وخلّفوها تبكي عزها الغابر . ثم التف بها الالمان في الحرب العالمية الثانية وضربوا عليها حصاراً دام عامين كاملين ، فلما جلوا عنها كانت لينينغراد قد فقدت مليوناً من ابنائها ، وخسرت اكثر ما كان فيها من تهاويل جمال شادتها يد الانسان .

* * *

... وكنت على موعد مع المستشرق الروسي الكبير كراتشكوفسكي مدير « المعهد الشرقي » في لينينغراد . ولم اكن قد لقيته في حياتي قط . لكنني كنت اعرف انه زار لبنان ومصر عامي ١٩١١ و ١٩١٢ وانه يتقن اللغة العربية اتقاناً لا يدانيه فيه اي مستشرق آخر ، وقد توفر على دراستها طوال خمسين عاماً والف فيها بالروسية اكثر من عشرة كتب .

وكنت ضيق الصدر ، منقبض النفس بعد تطوافي في شوارع لينينغراد . فقلت : لعلّ حديث الادب ، واللغة ، والاستشراق يسرّي عني ، ويشبع نهمي الى المعرفة ، ويفتح امام عيني آفاقاً جديدة . ولم يخيّب كراتشكوفسكي ظني ، فكانت زيارتي له ، وحديثي معه خير ما حملته من رحلتي الى لينينغراد من ذكريات .

طرقت باب المعهد الشرقي فاستقبلني كهل عريض الوجه ناتيء الوجنتين ادركت للوهلة الاولى انه من اواسط آسيا ، وقبل ان اكلمه سار امامي ودلني على الطريق . ثم فتح امامي باب مصعد ارتفع بنا الى الدور الرابع . وما كدت اخرج من المصعد حتى تلقاني شيخ مهيب الطلعة طويل الشعر ابيضه بقوله ،

العربية فصحى لا تشوبها اي لكنة : اهلا وسهلا بحضرة الوزير قلت : بالمتأهـــل ، لا شك انني في حضرة استاذنا الكبير كراتشكوفسكي . قال ، وهذا هو كلامه بالحرف : « اخشى ان يصح فيّ قول المثل . « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه. » قلت : استغفر الله ياسيدي الاستاذ . اني سعيد بزيارتكم . قال وهو يبتسم ، بـــل يضحك : « انا صرت مثل الفيل في حديقة الحيوانات ، يزوره الناس « للفرجة . »

وكان قد دعاني للجلوس امام مكتبه ، داخل مكتبة كل جدرانها خزائن مليئة بالكتب العربية . ثم قدم لي سيـــكارة واستأنف الحديث فقال : — كيف فؤاد افرام البستاني ؟ هل هو يعلم دائماً في اليسوعية ؟ قلت : — اجل . قال : هل تعرفه شخصياً ؟ قلت . اعرفـه جيداً ، وهو صديقي . قال : انا لا اعرفـه شخصياً ولكنني اعرف عنه كثيراً . « الروائع » جميلة جداً . نعجبني اساليبه وانتقاداته . هذا كتاب يبدو صغيراً ، لكنه جميل ومبـوب تبويباً حسنا . نحن ندّرس بعضّ اجزاء من الروائع . مثلاً « الجاحظ » وابن بطوطة . فؤاد البستاني من عائلة البستاني المشهورة . اليس كذلك؟ قلت : أجل وهو واحد من هؤلاء الاعلام الذين يزفهم لبنان من حين الى حين الى الاداب العربية . »

وأضفت : ومن تعرفون من ادباء العربية ياسيدي الاستاذ؟

قال : — عندما زرت لبنان ومصر قبل الحرب الكونية الاولى تعرفت بعدد كبـــير من المشتغلين باللغة والاداب . لكنهم كلهم ذهبوا الى الاخرة . وانا اليوم تشرفت بمعرفتكم . . . واعرف بالمكاتبة ميخائيل نعيمة ، وطه حسين ، ومحمود تيمور.

— وهل يصلكم شيء من المؤلفات العربية الحديثة؟

— يصلنا من مصر اكثرما يصلنا من سوريا ولبنان وغيرهما من البلاد العربية . وقد قرأت اخيراً « وحي الصحراء » لمحمد حسين هيكل . وهو كتاب يلفت النظر . وقرأت لطه حسين ، وهو متطرّف قليلاً اعتـــبرَ ان جميع الشعراء كوضّاح اليمن منحولون ، واظنّه متطرّفاً في هـــذا ، لكن انتقاداته مليحة ونظراته طيبة .

قلت . يا سيدي الاستاذ . يزعجني امر احب ان استشيركم فيه . كلما ركبت سيارة او طائرة او قطاراً وحاولت ان اسمي الاشياء التي تقع عليها عيناي باسماء عربية شعرت بعجزي او بعجز لغتي . واخاف ان تتخلف اللغة العربية عن ركب الحضارة . فكيف السبيل الى تدارك ذلك ؟ كيف السبيل الى لحاق اللغة العربية بالمخترعات الحديثة ، والتعبير عنها ؟ قـــال كراتشكوفسكي : — اظن انه يوجد طرق متنوعة . ويمكنكم ان تفعلوا مثلما فعلنا نحن بالروسية . نحـن اذا لم نستطع ان نترجم كلمة اجنبية الى الروسية اخذناها كما هي وتركنا للاستعمال ان يصقلها ويهذبهـا . اللغة العربية قوية جداً وهذه سعادتها لانها تهضم جيداً كل الكلمات التي تأخذها من اللغات المتنوعة .

قلت : — كنت منذ ايام امشي في احد شوارع موسكو فقرأت في واجهة مخزن كلمة « اودو كولونيا » بالروسية مع انها كلمة فرنسية بل ثلاث كلمات Eau De Cologne . ولمـــا سألت في ذلك سكرتيرتي الروسية ناقشتني وادعت ان الكلمة روسية خالصة ولاعلاقة لها البتة باللغة الفرنسية. فضحك الاستاذ كراتشوكفسكي وقال : ولمَ لا ؟ لمـــاذا لا تصبح هذه الكلمة روسية ؟

قلت : ان سيدي الاستاذ اذن مؤمن بمستقبل اللغة العربية اذا أخذنا الكلمات الاجنبية كما هي كلما تعذرت علينا الترجمة والاشتقاق .

قال : اجل . اجل . لقد اخذتم « تلفون » و « تلغراف » وهـــذا حسن جداً . ثم انفرجت اساريره عن ضحكة بريئة كضحكة الطفل وقال : ان لغة صنعت من كلمة « فوهرر » فهارر وفهاررة ، ومن كلمة « بنك » بنوك وبنوكة لا يخشى عليها ، ولولم اكن مؤمناً بمستقبل اللغة العربية لما كنت اشتغلت بها خمسين عاماً . اني لست مؤمناً فقط بل اني موقن ، هـذا هو اليقين . اني من الموقنين باللغة العربية . كل الدلائل تدل على ذلك . وختم عبارته بقوله : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ».

كان كراتشكوفسكي يتحدث اليّ وهو بادي الحيوية والنشاط. لكنني قلت له ، ولا ادري لماذا :— اخاف ان اتعبك ياسيدي الاستاذ .

فما كان منه الا ان اجابني : « تعبكم راحة ، تعبكم راحة » ثم نهض من مكانه ودعاني الى زيارة المكتبة وبدأ يتكلم العامية بعد ان كان يتكلم الفصحى . قال لي : تفضل تنشوف المكتبة بدّي فرجيك قسم المخطوطات . . »

وآخر كتاب اصدره كراتشكوفسكي كتاب باللغة الروسية « بينما انا منكبّ على المخطوطات العربية . »

واستغرق تطوافي بالمكتبة اكثر من ساعتين علمت في خلالها ان فيهـا عشرين الف مخطوطة عربية ونحواً من عشرة آلاف

غزل ...

الحبيب الأسمر

قرّةُ عيني منعّمٌ أسمـــرْ
أميرُ حسنٍ ، سبحان من أمَّرْ
النهرُ والجسرُ ثمَّ موعـــدنا
خلف البساتين ، والهوى أخضرْ
يحبُّني الف مـــرّةٍ ، وأنا
أحبُّهُ الـــف مرّةٍ أكثرْ
مصوغةٌ منه مهجتي قِطَعاً
محبوكةٌ بالقوام والمـــئزرْ
كأنَّ في دلِّه ومشيتـــه
غصنين جاآ وثالثاً قصَّرْ ...
في شفتيـه ، من وهم عضِّها
وردٌ يُعرّى وفستقٌ يُقْشَرْ
وعلى العنـق ، حول مشقتـه
عيد الغوالي ، وموسم العنبرْ

اغنية الوصل

نحن في الحـــبِّ تلاقينـــا
وعقـــدنا بـين قلبينـــا
نحن في عيدٍ ، وفي فرحٍ ،
بارك الحـــبُّ حوالينـــا
قـــد لبسنا زينةً عجبـــاً
وعـــلى الوصل تحلّينـــا
نحتسي ، والكأسُ واحدةٌ
هكذا نحـــن تعاطينـــا
شفتي في الكأس تتبعـــه
دون أن يذكر لي أينا ...
لو يبيت العمرُ نهر طـــلا
وعبينـــا ، ما تروّينـــا !

امين نخله

مخطوطة فارسية وتركية . واراني المستشرق مخطوطات وصفها بانها « فريدة في نوعها » منها :

— مقامات الحريري مصورة — من القرن الثالث عشر وهي مخطوطة لا مثيل لها في العالم. وهناك مخطوطة في باريس واخرى في فينا ، لكن مخطوطة لينينغراد تمتاز عنهما بعدد من الصور يبلغ المائة . وعلق المستشرق ، وهو يريني المخطوطة بقوله : ربما كانت هذه المقامات اقدم المخطوطات ، وهي تمثـــل المدرسة « السورية » (؟) اي مدرسة ما بين النهرين .

— ديوان جرير وهو من اقدم النسخ اذ تعود هذه النسخة الى القرن الرابع الهجري ، وديوان جرير المطبوع لم يؤخذ عن هذه المخطوطة اذ هي لم تنشر بعد ، ويوجد في العـالم مخطوطة ثانية فقط مثل هذه في مكتبة ليرن في هولنده .

— ديوان ابن قزمان وهو شاعر اندلسي عاش في القرن الثاني عشر المسيحي ، وهي نسخة وحيدة في العـالم ، واشعاره كلها باللغة العامية لا الفصحى . ولا شك انهـا اصل الازجال ، قال كراتشكوفسكي ان استاذاً فرنسياً اسمه كولان اشتغل فيها قبل الحرب لكنه لم يعد يسمع عنه شيئاً .

— ديوان ذي الرّمة : نسخة نادرة ، يوجد مثلهـــا نسخة واحدة في العالم في اوكسفورد .

واخيراً اراني مضيفي مخطوطة عجيبة هي مجلد واحد لا اول له ولا آخر وهو تاريخ بني امية وقيام الخلافة العباسية . قال عنه كراتشوفسكي : وجدنا هذا المجلد في آسيا الوسطى عام ١٩١١ ولا يوجد منه نسخة اخرى في اي بلد آخر .

* * *

كنت قد قضيت في صحبة كراتشكوفسكي اكثر من ثلاث ساعات عندما ودعته وكانت آخر عبارة عربية رنت في اذني قوله لي ، وانا اركب السيارة : على الطائر الميمون يا حضرة الوزير . نراك بخير ...

وانتم بألف خير !

خليل تقي الدين